ترجمة معاني القرآن الكريم إلى الألمانية
مشكلات وخبرات

أ.د. مصطفى ماهر

نشأت هذه الدراسة التي كتبتها بالألمانية بعنوان Probleme und Erfahrungen der Koran-Übersetzung عندما طلبت إليّ الجمعية الدولية لدراسات اللغة والآداب الألمانية من منظور التداخل الثقافي Gesellschaft für Interkulturelle Germanistik (GIG) ومقرها زالتسبورج بالنمسا أن ألقي محاضرة افتتاح مؤتمرها الدولي الذي تقرر عقده في چابپور بالهند من ٢٣ فبراير إلى ١ مارس ٢٠٠٥ حول محور إله الآخرين – التحورات الثقافاتية التداخلية للموروثات الدينية في النصوص الأدبية Der Gott der Anderen- Interkulturelle Transformationen religiöser Traditionen in literarischen Texten ، وترجمته الإنجليزية (The God of the Others – intercultural transformations of religious traditions in literary texts) واقترحت عليّ أن أتحدث عن مشكلات ترجمة معاني القرآن الكريم إلى الألمانية وعن خبراتي في هذا المجال بناءً على ترجمتي لمعاني القرآن الكريم إلى الألمانية التي نشرها الأزهر ووزارة الأوقاف والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة في عام ١٩٩٩ في سلسلة تحمل اسم "المنتخب في تفسير القرآن الكريم" ظهرت فيها ترجمات إلى الإنجليزية والروسية والفرنسية... وبالفعل ألقيتُ المحاضرة الافتتاحية لهذا المؤتمر العلمي الدولي المتميز الذي أرى أنه علامة فارقة في تاريخ الدراسات اللغوية والأدبية والترجمية الألمانية من منطلق تداخل الثقافات، حيث تطرق العلماء المشاركون القادمون من ألمانيا والنمسا وسويسرا وتركيا وجنوب أفريقيا واليابان والصين وأمريكا اللاتينية والهند والجزائر ومصر إلى موضوعات فهم أديان الآخرين ومذاهبهم على نطاق العالم كله، وليس على نطاق ثنائي يحيط بدينين على وجه التحديد، وهو ما يعني قيام توجه ينبني على تسامح شامل قائم على السعي إلى فهم الآخرين كما يفهمون أنفسهم، لا كما يفرض الغير عليهم فهمهم .

ولهذا نوهت في جزء تمهيدي من دراستي بالموضوعات التي بحثها هؤلاء العلماء في بحوثهم التي ألقوها والتي ستصدر في سجل وقائع المؤتمر. وانتقلت إلى عرض بعض الأساسيات التنظيرية التي أبني عليها مشاركاتي في هذا المجال والتي أطرحها للتأمل لعلنا أن نأخذ بها في فهم

الآخر وفي محاولا ت الحوار الديني أو الحوار بين الأديان، ومحاولات التقارب واكتشاف أرضية مشتركة يمكن أن تحقق هذا التقارب.

والرأي عندي أننا نحسن صنعاً عندما نفكر، ونحن نسلك سبيل الحوار بين الأديان، في أن نفتح صفحة جديدة في سجل العلاقات بين أصحاب الديانات المختلفة، شريطة ولكن علينا أن نمهد لها بدراسة متوازنة ومتعمقة وشاملة للصفحة القديمة أو الصفحات القديمة التي نريد أن نقفلها، لكي نحيط خُبراً بنصوصها وتأويلاتها ومساراتها وانعكاساتها وتأثيراتها لا في الأدب أو الأدبيات فحسب، بل في مكونات الثقافة كلها، وبخاصة في مجالات السياسة والإعلام والعلاقات بين البشر. فلا خير في تجاهل الموروث الماضي، لأن تراكماته موجودة، ظاهرة كانت أو باطنة أو كامنة، ولا يمكن محوها بمجرد التجاهل. فمن هذه التراكمات ما نظن أنه تلاشى بمرور الزمن واختلاف الأزمنة، ثم نفاجأ به يعود من جديد، ربما في ثوب جديد، وباسم جديد. إننا إذ نخطط لحوار صادق ومثمر نتطلع إلى المستقبل، وإلى الأفضل، ولهذا لا نغفل الماضي، بل نقيم خطابنا إلى الآخرين عن بينة على أساس اتساق بين استيعاب الماضي والتوجه نحو المستقبل. ومن الكلمات الدالة في هذا المقام كلمة الشفافية التي يطالب الخاصة والعامة بها في كل محفل .

ثم إننا بعد ذلك مطالبون بأن نكثف حضورنا وننظمه ونهيئ له الوثائق والدراسات، وأن نشارك بأنفسنا في الحوارات التي لم تعد نعقد في أماكن عامة أو خاصة فحسب، بل أصبحت حلقاتها تتوالى أيضاً مذاعة صوتاً وصورة بوسائل الاتصال والتواصل والمعينات والنظم المتداخلة والمتجددة والمؤثرة في عصرنا، فنرسم نحن صورتنا لتحل محل الصور التي يرسمها الآخرون أو تصححها، ونقول كلمتنا في قضيتنا عندما يقول الآخرون كلماتهم فيها، ونضع تقييمنا على المائدة التي يضع عليها الآخرون تقييماتهم، ونمارس النقد كما يمارسه الآخرون ونخلص إلى آراء لنا كما يخلص الآخرون إلى آراء لهم ، وندعو إلى حكمة لخير البشرية كلها قائمة على الابتكار والتعارف والتعاون والتكامل والتسامح والسلام والعدل والإخاء. وسبيلنا إلى الكلمة السواء أن نفهم الآخرين كما يفهمون هم أنفسهم، وأن نتيح لهم أن يفهمونا كما نفهم نحن أنفسنا. هذا نموذج تفكير جدير بالاهتمام والتأصيل والتجريب .

على هذه الخلفية من التأسيس المنهجي نفهم أن يقوم مترجمون ومفكرون منا بوضع مصادر معلومات أمام الآخرين حتى لا يكون اعتمادهم على مصادرهم هم وحدها .

ولنا أن ننظر إلى النتاج الأدبية في ثقافتنا شرقاً وفي ثقافة الآخر غرباً لنتبين احتمال أن يكون تأثير الثقافة العربية الإسلامية في الأدب الألماني في العصر الوسيط قد سبق زمن الحروب الصليبية بقرون، ولنا ولغيرنا دراسات في هذا الموضوع يمكن الرجوع إليها. وكذلك لدينا أدلة محسوسة على هذا التأثر وقد ازداد وضوحاً في زمن الحروب الصليبية نختار منها بعض الأمثلة. هذا هو الشاعر الألماني الوسيطي الغنائي ڤالتر فون فوجلڤايده Walter von der Vogelweide يشيد بكرم صلاح الدين وهذا هو الشاعر الألماني الوسيطي الملحمي ڤولفرام فون إيشينباخ Wolfram von Eschenbach يلهج بالثناء على الفرسانية العربية الإسلامية وما اتسمت به الفرسان العرب والمسلمون من شجاعة وإقدام وشهامة وثقافة، حتى إن الفارس الألماني جاهموريت المعتد بنفسه أبى إلا أن يناضل تحت راية أكبر أمراء الدنيا وهو الفاروق عمر الذين يحكم ثلثي المعمورة. ولم يقف ڤولفرام فون إيشينباخ عند حد الإعجاب بالفرسانية العربية الإسلامية ، بل عبر على غير عادة العصر عن إيمانه بأن المسلمين والمسيحيين ينتمون إلى إنسانية واحدة .

ولكن التيار العام في الغرب منذ حركة "الاستعادة" reconquista – استعادة إسبانيا – كان يتسم بالعداء السافر للإسلام والمسلمين. واستخدم أعداء الإسلام أسلحة الحرب والدعاية الكاذبة والتشويه والتشهير والافتراء. وكما خرج من دير كلوني Cluny الفرنسي مشروع القتال المسلح وهو الحروب الصليبية (١٠٩٥-١٢٧٠) ، خرج منه مشروع القتال بسلاح الفكر والدين والجدل بقصد إقناع المسلمين بالدخول في الدين الذي له وهو المسيحية على مذهب الكاثوليكية. وسيطر على الفكر اللاهوتي وبخاصة بعد فشل العديدة من الحملات الصليبية المسلحة زعم بأن الإسلام الذي يدعو إلى الإيمان بالله وبالتوراة والإنجيل وموسى وعيسى ومريم وبالقيامة والحساب والجنة والنار ويأخذ بالعديد من القيم الأخلاقية هو مذهب من المذاهب المسيحية المارقة أو هرطقة من تلك الهرطقات التي كانت الكنيسة الكاثوليكية تبذل الجهود لمجادلة أصحابها وإقناعهم بخطئهم وردهم إلى الدين الواحد الصحيح. وكان هذا المشروع يتطلب الإحاطة بالمصادر والمراجع وإعداد الدعاة المجادلين ونشر مقومات هذا الفكر الخبيث الهدام المعادي للإسلام على أوسع نطاق، لخلق تَـوَجُّـهٍ عنيف في كل المواضع المؤثرة في العالم الكاثوليكي، بالتوازي مع التغلغل المسلح والدعائي والمهيمن والمجادل في عالم الإسلام .

خرج من دير كلونيCluny إذن مشروع تكوين مكتبة مغرضة محددة الهدف ، صاحبه هو أبٌ من القيِّمين على أمور الدير هو بطرس المبجل Petrus Venerabilis الذي ولد في عام ١٠٩٢ أو ١٠٩٤ وتوفي في عام ١١٥٦ أو ١١٥٧، كلف ثلاثة من الرهبان المتمكنين من اللاتينية الذين تعلموا العربية ومارسوا الترجمة بترجمة القرآن الكريم وبعض الكتب عن السيرة النبوية وتاريخ المسلمين وعن المجادلة بين مسلم ومسيحي الإسلام إلى اللاتينية وأجزل لهم العطاء.

والأرجح أن الذي قام بترجمة القرآن الكريم هو روبرت أوف تشيستر Robert of Chester الذي يكتبون اسمه باللاتينية Robertus Ketenensis أو Robertus Cetenensis . وقد بينتُ بالاستعانة ببحوث علماء ألمان متخصصين أوجه التحريف المتعمد ونوعيات الأخطاء التي حفلت بها هذه الترجمة التي تمت في عام ١١٤٣. وكذلك تتبعت تأثير هذه الترجمة – التي أصنّفها ضمن مجموعة الترجمات التفنيدية التي لا تنقل النص الأصلي إلا عامدة إلى الحطّ من قدره وتزييف مضمونه ودحضه وتكذيبه – في إطار استقبال القرآن الكريم في الغرب وفي ألمانيا بصفة خاصة ومسئوليتها عن تكثيف الموقف العدائي تجاه الإسلام. وقد طبعت هذه الترجمة في عام ١٥٤٣ أو بعد أن ظلت مخطوطاتها العديدة طوال أربعة قرون واسعة الانتشار وشديدة التأثير. وعلى الرغم من العداوة بين الكاثوليك والبروتستانت فقد اتفقوا وتعاونوا على إخراج هذه الترجمة اللاتينية للقرآن الكريم مطبوعة في بازل. وقد تكررت طباعتها مرة ثانية في عام ١٥٥٠.

وجدير بالذكر أن هذه الترجمة كانت تمثل المجلد الأول من كتاب جامع يتكون من ثلاثة مجلدات ضمت بقية الكتب المناهضة للإسلام والتي تحمل عناوين سخيفة بذيئة للتحقير والاستهزاء، لا يتسع المجال هنا الدخول في تفصيلاتها. والمؤكد أن مجال تأثير هذه الترجمة اللاتينية اتسع وتنوع بعد أن طبعت، حيث نقلها إلى الإيطالية أريڤابيني Arrivabene في عام ١٥٤٧ مدعياً أن ترجمته ترجمة جديدة مباشرة عن العربية tradotto nuovamente dall'Arabo أعطاها عنوان "قرآن محمد" L'Alcorano di Macometto وحرّف اسم النبي ﷺ إلى "ماكوميتو". ولم يتعب الألماني سالومون شڤايجر Salmon Schweigger نفسه في الترجمة من اللاتينية بل ترجم الترجمة الإيطالية إلى الألمانية ونشرها في عام ١٦١٦ ونسب القرآن إلى الأتراك فجعل عنوانها "قرآن الأتراك"Der Türcken Alcoran . وظل التوجه المناهض للإسلام يحكم ترجمات القرآن التي ظهرت حتى عام ١٧٣٤، ومن بينها ترجمة لاتينية جرى بها قلم ماراتشي Marracci أو ماراتشيوس Marraccius وظهرت مع الأصل العربي في طبعة فاخرة من مجلدين في عام ١٦٩٨ تحمل عنوان "تفنيد القرآن"، أما عام ١٧٣٤ فقد شهد ظهور ترجمة جورج سيل George Sale إلى الإنجليزية والتي ترجمها تيودور أرنولد Theodor Arnoldإلى الألمانية في عام ١٧٤٦، ولهذا التاريخ أهمية خاصة لأن جورج سيل لم يتبع التوجه التقليدي المعادي للإسلام بل آثر الاعتدال. وهذه الترجمة قرأها شاعر ألمانيا الأشهر جوته ، ولا جدال في أنها أثرت فيه تأثيراً إيجابياً عرفناه في العديد من كتاباته وبخاصة في "الديوان الشرقي الغربي" الذي قال فيه :

إذا كان الإسلام يعني الإسلام لله
فإننا جميعاً نعيش ونموت على الإسلام.

ومن البديهي أن ننوه بالشعراء والكتاب الألمان الذين وقفوا من الإسلام موقفاً كريماً وعلى رأسهم ليسينج الذي عبر عن التسامح بالمعنى الحديث الذي يدعو إليه المتسامحون ويمارسونه. فعلى الرغم من أنه كان ينتمي إلى مدرسة التنوير الألمانية التي تمارس نوعاً آخر من التسامح يقوم على أن الدين يصبح بعد التنوير دين العقل ودين الفطرة، إلا أنه عبر في مسرحية "ناتان الحكيم" عن إيمانه بأن الأديان السماوية "اليهودية والمسيحية والإسلام" سواء فكل منها تلقت الوحي من الله .

وبينما كان الأمل يراود المتفائلين من المتنورين ومن المؤمنين بثقافة إنسانية شاملة عادلة تكفل الخير والسلام والأمن والعلم النافع والتقدم للبشر جميعاً وتآخي بينهم دون تمييز بسبب الدين أو اللون أو العرق أو الجنس،ظل التوجه المعادي للإسلام مستمراً في الغرب إلى أن رفع المعتدلون راية الحوار السلمي بين الأديان، وبخاصة في مواجه الهجمة الشرسة التي توجه الاتهامات جزافاً، وتعود بنا إلى عصر الحروب الصليبية الدامية البائد .

وأحسب أننا لم نتنبه بقدرٍ كافٍ إلى أن عدداً من المترجمين الألمان والنمساويين في القرن التاسع عشر نهجوا في ترجمة القرآن الكريم نهجاً يقوم على تصورهم أن القرآن في حقيقته قصيدة من الشعر أخذت بألباب العرب بما تزخر به من قافية وسجع وتجنيس وألوان من البديع والصور البلاغية. وقال زعيم هؤلاء المترجمين وهو يوزف فون هامر پورجشتال أن محمداً أخضع العرب بالسحر الشعري لقرآنه الخ. ومن البديهي أن مثل هذه الترجمات التي وصفها أصحابها بأنها شعرية غلّبت النواحي الشكلية على حساب المضمون. وما القرآن الكريم بقول شاعر، وإنما هو هدى ورحمة للعالمين. وأكبر الظن أن محاولات ترجمة القرآن الكريم إلى شعر ألماني لم تتكرر بعد فريدريش روكرت، وانتهت إلى ما يشبه المتاحف .

وما يزال المترجمون الألمان يهتمون بترجمة القرآن الكريم ترجمات جديدة أو يجددون ترجمات قديمة. وقد يخرج تجديد ترجمة قديمة بها عن الغاية التي قصد إليها صاحبها. فالترجمة التي قام بها القس ماكس هينينج ونشرها في دار النشر الشعبية "ريكلام" قصد بها المشاركة في محاولات هدم الإسلام وزعزعته. ومن يقرأ مقدمة هذه الترجمة يجد فيها تعبيراً صريحاً عن مقاصد المترجم. فلما قامت المستشرقة أنيماري شيمل بتجديد هذه الترجمة، استبعدت المقدمة السخيفة، وكتبت مقدمة أخرى محترمة، وصححت بعض الأخطاء الصارخة، وراجت هذه الترجمة في ثوبها الجديد تؤدي دوراً مختلفاً عن الدور الذي أراده لها مترجمها الأصلي. ثم تناول المستشرق الألماني مراد هوفمان بمزيد من الإصلاح .

وبعد هذا التمهيد بينت في جزء ثان من هذه الدراسة بعض جوانب منهجي في ترجمة القرآن الكريم، وكيف أنني أميل إلى تصنيف الترجمة تصنيفاً أقرب ما يكون إلى التفسير، وأن الخير

فيها أن تكون سهلة وألا تمتلئ بكلمات غريبة أو تراكيب غير مألوفة تلوي ذراع لغة المتلقي. ويعرف من شغلوا بالدراسات القرآنية أنه لا توجد جزئية من جزئيات القرآن الكريم مهما صغرت إلا وحظيت بالدرس المستدام والمتجدد. ويصبح على المترجم بعد أن يراجع ما يتيسر له من هذه الدراسات أن يختار إمكانية واحدة يضمنها نصه السلس. ومن المترجمين أن يضعوا إمكانية أخرى أو عدة إمكانيات مقبولة بين أقواس كما فعل رودي باريت. ومنهم من يلجأ إلى ملحوظات هامشية. وهذا نمط من الترجمة أسميه الترجمة المشروحة .

والمترجم يعرف أن النقل بين لغتين يواجه وقائع الاختلاف في النحو والصرف والصياغة، وأن هذا الاختلاف يحفزه إلى الموازنة والاختيار والسعي إلى ما يطمئن إلى أنه أصح الحلول. فالترجمة علم بحره واسع. والذين عقدوا مقارنات بين الألمانية والعربية يعرفون أن اللغة الألمانية ليس فيها مفعول مطلق، وليس فيها إن وأخواتها وكان وأخواتها إلى آخر هذه المكونات النحوية الخاصة، وأن اللغة العربية ليس فيها أفعال صيغية مساعدة من نوع الأفعال الصيغية المساعدة في الألمانية، وأن استخدامات الجار والمجرور والمبني للمجهول لا تقابل تماماً نظائرها في الألمانية. وإذا كنا نعتقد أن صاحب اللغتين يمكنه أن يعبر بهما عن المضامين نفسها بآليات مختلفة، فإن ناتج عملية الترجمة يختلف شكلاً عن الأصل وإن صح أنه لا بد أن يحمل نفس المضمون .

وقائمة الاختلافات بين اللغتين تشمل تحديات كثيرة في بناء الكلمة وفي المعاني والبيان والبديع والدلالة. وقد أشرت في الدراسة إلى العديد من هذه الحالات .

أما الجزء الثالث من الدراسة فيتكون من مختارات من آيات القرآن الكريمة في ترجمتي يمكن أن يفيد منها القارئ الألماني في تكوين صورة عن الإسلام كما يعبر عنه القرآن الكريم ، وقد يقارنها بما تروجه أجهزة الإعلام المغرضة وغير المغرضة ليقترب بنفسه من الحقيقة. ورتبت الآيات التي اخترتها تحت العناوين التالية: الله – الإسلام لله – الجدل بالتي هي أحسن – التسامح – الصبر – الاجتهاد والجهاد – لا إكراه في الدين – السلام – رد العدوان – مهمة الإنسان – عمارة الأرض – التوازن بين الدنيا والآخرة – تحريم العنف والإرهاب – حرية الإرادة – اختلاف البشر آية من آيات الله – اختلاف البشر يؤدي إلى التعارف والتعاون – الحض على استخدام العقل – يعقلون ، يفقهون، يعلمون – التمسك بالحقيقة – تحريم التحريف والكذب والافتراء – لكل إنسان شرعة – الله وحده هو الذي يحكم يوم القيامة فيما اختلفت فيه الأديان والمذاهب – أحل الله الطيبات وحرم الخبائث – التسابق في فعل الخير – العدل – الدقة – المساواة بين البشر – العلاقة المباشرة بين الإنسان وربه – المساواة بين الرجل والمرأة – تحريم السيطرة والاستبداد – حرية الرأي – الديموقراطية – الحب – الزواج .